

معلومات حول نفوذ الشيعة الإمامية

في المدينة المنورة

في النصف الأول من القرن الهجري الثامن

رسول جعفریان^١

المترجم: السيد عباس الصافي

الموجز:

كانت المدينة المنورة خاضعة لنفوذ السادة الذين كان يُطلق عليهم اصطلاحاً اسم (الأشراف) منذ أواخر القرن الثاني، وبشكل رسمي منذ القرن الرابع للهجرة، وكان هؤلاء السادة غالباً ما يميلون إلى المذهب الشيعي، لكن، وبسبب تسلط الخلفاء العباسيين كان هؤلاء القوم يتمسكون بالتقية بل ويتظاهرون أحياناً بأنهم من أهل السنة، بسبب العلاقات

١. أستاذ محاضر في جامعة طهران.

الأُسرية، إلاّ أنّهم ظلّوا متمسّكين بالمذهب الشيعيّ.

وفي عهد الخلفاء الفاطميين كان أولئك السادة يُظهرون تشييعهم بشكل علنيّ، ومع سقوط الدولة الفاطمية ومجيء الحُكّام الأيوبيين ومن ثمّ المماليك ازداد الضغط على السادة الأشراف. وكانت المدينة آنذاك تتألّف من فئتين من الناس (المجاورون - المقيمون)؛ فأما (المجاورون)، فهم الذين كانوا يأتون إليها من الخارج وغالباً ما كانوا من أهل السنّة، وأمّا (المقيمون) فكانوا من الشيعة وتحت حماية الأشراف. وهكذا استمرّ الجدل والاحتكاك بين تلكما الفئتين وبقيت ظلال تلك المنازعات قائمة حتى النصف الأوّل من القرن الهجريّ الثامن وقد صوّر تفاصيل تلك المنازعات بين هاتين الفئتين الكتاب المسمّى «نصيحة المشاور وتعزية المجاور».

الكلمات المفتاحية:

المدينة المنورة، نصيحة المشاور، الأشراف، العباسيون، الفاطميون، المقيمون، المجاورون.

مقدّمة حول كتاب «نصيحة المشاور وتعزية المجاور»

صدرت مؤخّراً طبعة جديدة ومنقّحة من كتاب «نصيحة المشاور وتعزية المجاور» بإشراف عبدالله بن محمّد بن فرحون اليعمريّ (٦٩٣-٧٦٩هـ) وهي طبعة جميلة ودقيقة للغاية. يتناول الكتاب المذكور تاريخ المدينة المنورة في إطار أخبار المجاورين للحرم النبويّ الشريف ويتضمّن في الحقيقة أخبار بعض الشخصيات والقضاة وأئمّة المساجد وكذلك بعض الأمراء الذين عاشوا في تلك المدينة ممّن كان لهم تأثير كبير في تلك الحقبة من خلال المناصب الدينية أو السياسية التي كانوا يشغلونها.

واليعمريّ شخصيّة تونسية الأصل مالكيّ المذهب قضى مُعظم حياته في المدينة إلى جانب المجاورين المغربيين وكان يشغل هناك منصب نائب القضاء منذ سنة (٧٥٦هـ)، وكان والده وأخوه وبعض أقاربه موجودين كذلك في المدينة المنورة حيث أفرد القسم الأخير من كتابهم المذكور في ذكر سيرتهم. وبالاستناد إلى ما قاله اليعمريّ في كتابه فإنّ والده كان قد توفّي سنة (٧٢٢هـ) - الصفحة رقم (١٦٣) من الكتاب، ووفق ما ذكره اليعمريّ في الكتاب

معلومات حول نفوذ الشيعة ...

نفسه فإنه كان أحد علماء المدينة المعروفين وكان يحاول إظهار نفسه بأنه المدافع عن أهل السنة في مقابل الشيعة هناك إلى جانب الآخرين والتحرك بمظهر العالم المالكي والسعي إلى قيادة أبناء مذهبه من المغاربة في المدينة والحصول على بعض الامتيازات والجاه من السلطان.



قال مُصَحِّح الكتاب في مقدّمته الموجزة: «كان - رحمه الله - من المُكثِرِينَ للحجّ، فقد حجّ خمساً وخمسين حجّة»، وظلّ يودّيّ صلّاته في الصفوف الأولى من المصلّين في مسجد النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مدّة ستين عاماً، وكان يُظهر نفسه على أنّه أحد العوامل التي ساعدت على نشر المذهب المالكيّ في المدينة وأنه كان ناشطاً في مجال الحديث والعلوم الدينية

الأخرى.

إلا أن ما يهمننا هنا هو أن المؤلف كانت له آراء تاريخية إلى جانب المجالات الدينية وكان يُكثر من الثقل عن جمال الدين المطري ومتأثراً به والمعروف أن المطري كان مؤلفاً محترفاً في مجال التاريخ كما يبدو من كتابه المسمى «التعريف». والحقيقة أن علماء السنّة كان يتميّزون بالنظرة التاريخية وذلك بسبب معرفتهم بعلم الحديث والرجال وكذلك الاهتمام بالموضوعات الخلافية بين المذاهب، إلا أن اليعمري كان أكثر اهتماماً وفاعلية في هذا المجال وكتابه: «نصيحة المشاور وتعزية المجاور» دليل ساطع على ما نقوله حيث كان ينظر إلى التاريخ نظرة احترافية، ومع ذلك فإن نظرتة التاريخية متأثرة إلى حد كبير بفكره الديني والمذهبي. ويُعدّ كتاب اليعمري المصدر الرئيس للسخاوي عند تأليفه كتابه المسمى: «التحفة اللطيفة» الذي صدر مؤخراً في تسعة مجلّدات وتناول تاريخ المدينة المنورة بالتفصيل لكنّه كان قد طبع أيضاً قبل هذا حيث أشار مُصحّح الكتاب الحاضر إلى ذلك في هوامشه.

يضمّ كتاب «نصيحة المشاور وتعزية المجاور» - بعد مقدّمة حول المسجد والجوانب المزيّنة فيه وضرورة الزّهد والعفو وغير ذلك من الأمور - تقريراً عن سيرة بعض الخدّام والقياسيين والمجاورين في تلك المنطقة وهو في الحقيقة صورة منقولة عن المدينة بمنظار المجاورين، لكنّه بشكل عام يُعدّ تاريخاً مدوّناً للمدينة المنورة ويشتمل على الكثير من الأخبار الخاصة بعلاقات هذه المدينة مع الدولة الأيوبية ومن بعدها المماليك وكذلك علاقاتها مع أمراء مكّة آنذاك. ويبدأ نصّ السّير في الكتاب من الصفحة رقم (٨٢)، كما يتضمّن الكتاب كذلك معلومات تاريخية متفرّقة. فعلى سبيل المثال، تطرّقت بعض صفحات الكتاب المذكور إلى سيرة صلاح الدين الأيوبي وتاريخه وفتوحاته إضافة إلى شرح مُفصّل حول الدولة الفاطمية لكن بنظرة نقدية سنّية متطرّفة وهي في الأغلب قضايا مُكرّرة ومذكورة سابقاً.

وقد ورد الكثير من المطالب أيضاً حول سيرة المؤلف نفسه، وكما أشرنا آنفاً فإن المؤلف أفرد الفصل الأخير من كتابه في شرح سيرة والده وأخيه.^١ هذا، وتمّ نشر كتاب: «نصيحة المشاور وتعزية المجاور» حديثاً في (٤٤٣) صفحة (أو ٥٤٥ صفحة مع الفهارس) بمناسبة اعتبار المدينة المنورة عاصمة للثقافة في العالم الإسلامي، ويحمل الكتاب المذكور عناوين عدد من المؤسسات ودور النشر ومنها مركز البحوث والدراسات في المدينة المنورة والدارة) كناشرين للكتاب.

وتكمن أهمية الكتاب الحالي في كونه يضمّ الكثير من الأخبار التي تحكي تاريخ المدينة وهو مكتوب بأسلوب أدبيّ رصين ومتين ويشتمل على عدد كبير من الموضوعات المهمة حول التاريخ الثقافي والاجتماعي للمدينة. وقد تمّ نشر الكتاب المذكور مع التحقيق والتدقيق في الشكل والإعراب ويمتاز بالدقّة إلى حدّ كبير بمجرد إلقاء نظرة سريعة عليه. وبالنظر إلى أهمية الكتاب ولا سيّما في معرفة تاريخ المدينة فقد كثرت طبعاته وازدادت أعداده وإن كان تُشير عدّة مرّات قبل ذلك أيضاً وهو معروض على شبكة الإنترنت بحلّة جديدة.

تشير مقدّمة كتاب: «نصيحة المشاور وتعزية المجاور» - وفق المعلومات التي ذكرها المؤلف عن نفسه - إلى أنّ اليعمريّ قد لعب دوراً كبيراً في الوقوف بوجه فقهاء الإمامية ومنعهم عن الوصول إلى مناصب القضاء في المدينة، كما يدلّ كتابه المذكور بصراحة على أنّ فقهاء الإمامية استطاعوا الصمود والبقاء على قدرتهم المذهبية فترة طويلة نسبياً وذلك بفضل حماية الشيعة لهم في المدينة و دعم الأشراف الذين كانوا آنذاك يميلون إلى مذهب الإمامية.

ويحاول اليعمريّ إثبات أنّه و عدد من رجال الدين الذين تمّ إرسالهم من قبل

١. الصفحة ٤١٩ فما بعد .

السلطان المملوكيّ وبقوّة الدعم السياسيّ والماليّ التي كان هو وجماعته يتمتّعون بها استطاع الوقوف بوجه التيار الشيعيّ الإماميّ وفقهائه وأنه اشتغل مدّة طويلة لإقصائهم والقضاء عليهم. ويبدو أنّ نفوذ الشيعة الإمامية ونشاطاتهم قد ضعف و ضلّ بعد تلك المحاولات والفعاليات التي قام بها اليعمريّ وأقرانه وخصوصاً في أمر القضاء في المدينة المنورة. والحقيقة أنّ تلك المنافسة كانت منافسة بين الأشراف في المدينة والسلطان المملوكيّ، فكان أحدهم يمتلك السلطة على الأرض بينما يمتلك الآخر القدرة السياسية والمالية والأموال التي كان ينبغي له إرسالها إلى مكّة كلّ عام وكذلك إرسال خطيب وإمام من جهته إلى تلك الديار. ويرينا الكتاب صورة واضحة ومتكاملة عن شكل تلك المنافسة في تلك الأيام.

إنّنا نعلم علم اليقين أنّ النفوذ الشيعيّ في تلك المدينة كان قد بدأ في العقود الوسطى من القرن الهجريّ السابع واستمرّ هذا الوضع حتى أواسط القرن الثامن للهجرة. ويُعدّ هذا الكتاب مصدراً مهمّاً للمعلومات التي نمتلكها بهذا الشأن، وقد أدّت جهود اليعمري التي استمات في تسخيرها للتقليل من سلطة الفقهاء والقضاة الشيعة في المدينة وإضعاف نفوذهم وسرد أخبارهم وسيرتهم في كتابه المذكور، أدّى كلّ ذلك إلى حثنا على إلقاء نظرة على هذا الكتاب. والحقيقة أنّ الكتاب الحالي يتضمّن أخباراً مهمّة بشأن تاريخ الشيعة الإمامية في المدينة المنورة.

يمكننا الاستنباط من هذا الكتاب بشكل جيّد أنّ أغلب المُقيمين وأبناء المدينة المنورة كانوا على المذهب الشيعيّ وأنّ معظم المجاورين والأفراد الذين قدموا إلى المدينة من مختلف الأصقاع كانوا على المذهب السنيّ، ولهذا السبب حدث الكثير من النزاعات والصراعات المذهبية بين الطائفتين، فكان أشراف المدينة يحامون عن المُقيمين في المدينة على حين كان السلاطين المماليك يذودون عن المجاورين فيها.

لن نخوض ههنا في المعلومات الأخرى التي وردت في كتاب: «نصيحة المشاور وتعزية المجاور» والتي تُعتبر غاية في الأهمية في محلّها، وسنكتفي بالإشارة فقط إلى تلك النصوص التي تخصّ علماء الشيعة أو المسائل المتعلّقة بهم، أمّا الهوامش والإرجاعات التي

اعتمدها فهي مستندة إلى هذه الطبعة من الكتاب المذكور والمنشورة بتصحيح وتحقيق مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة سنة (١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م).

بداية التقرير

قال المؤلف في أول كلامه عن لزوم كرسيّ القضاء وضرورته في المسجد: «ودكّة عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه في مسجد الكوفة إلى الآن معروفة»^١. ثمّ تناول اليعمريّ موضوع بناء الدكات في بعض نقاط المسجد لأمر خاصّة وأشار إلى بناء دكّة للمؤذنين وإلى بعض الأبنية الإضافية الأخرى التي تسببت في إحداث جملة من المشاكل والتي قال عنها: إنّها بدعة، وأضاف قائلاً: «وقد تساهل من كان قبلنا فزادوا على الحجرة الشريفة مقصورة كبيرة، عملت وقاية من الشمس إذا غربت، فكانت بدعة وضلالة يصلّي فيها الإمامية من الشيعة، لأنّها قطعت الصفوف، واتّسمت بمن ذكر من الصنوف، فغلبت المفسدة بها، وندم على ذلك من وضعها. ولقد كنت أسمع الشريف عزاز يقف على بابها، ويؤذّن بأعلى صوته من غير خوف ولا خجل: «حيّ على خير العمل»، وكانت مواطن تدرّسهم وخلوة علمائهم، حتى قيض الله لها من سعى فيها، فأصبحت ليلة محلّعة أبوابها، معوجة أخشابها، متّصلة صفوفها، وأدخل بعضها في الحجرة الشريفة، وجعل فيها الباب الشامي»^٢.

ومن هنا بدأ اليعمريّ بالإشارة إلى «آل سنان» كواحدة من الأسر الشيعية الإمامية ويذكرهم في كلّ موضع وموطن من كتابه، ومن ذلك قوله في عدّ البدع التي صنعت داخل المسجد ويشير إلى الصناديق التي كان أحدها في مقابل رأس النبي (صلى الله عليه وآله) وكان الآخر مقابلاً لدار فاطمة (عليها السلام) وغير ذلك فيقول: «ومما أدركت من البدع التي أراح الله منها، ما

١. المصدر نفسه : ٤٠ .

٢. المصدر نفسه : ٥٢ .

كان يفعله الشرفاء من آل سنان وغيرهم»^١.

وهكذا يستأنف اليعمرى منهجه في كتابه الذي أراد به الإشارة بوضوح إلى قدرة آل سنان من الشيعة وإضعاف نفوذهم وتعزيز قوة أهل السنة بقوله: «لم يزل كذلك حتى قويت السنة وأهلها». ومن ذلك أيضاً ما قاله اليعمرى:

«أني أدركت قراء الإمامية وأتمتها إذا دخل شهر رمضان، أخذوا من القبّة شعماً وشمعدانات على عددهم ينصبونها بعد صلاة الآخرة في مجالسهم، ويدعون في كتبهم، ويرفعون أصواتهم حول الروضة، والناس في الصلاة لا يعلمون صلاتهم من رفع أصواتهم، ولا يسمعون قراءة إمامهم لكثرة قرائهم، ويجتمع عليهم من الناس خلق كثير، ويتخللون تلك الأدعية بسجديات لهم مؤقتة. ولم يزالوا كذلك إلى أن اجتمعت الكلمة، وظهر الحق، فمُنِعوا من ذلك إلا في بيوتهم ومجالسهم، فانحسرت المادة، وزالت تلك العادة».

ثم يُضيف اليعمرى قائلاً:

«ولقد أدركت جماعة من المجاورين والخدّام لا يقرؤون كتبهم، ولا يسمعون حديث نبيهم إلا في خفية، حتى قدم الصاحب ابن حنّاً رحمه الله تعالى، وأقام بالمدينة فكثّر من قراءة المواعيد، وقام على آل سنان والقياشين، فهابوا مكانه من السلطان، وأذعنوا واستعملوا التقية حتى رجعوا فيما زعموا كلهم سنة»^٢.

«ويمدّ رؤساء الإماميين وكبار الشرفاء المقيمين، حتى أشهدوا على أنفسهم أنهم سنة، ولا يحكمون بأحكام البدعة، وكان الحكّام منهم والفقهاء منهم، ولم يزالوا كذلك حتى سافر الصّاحب عنهم، فرجعوا إلى حالهم، ولكن بعد هضم جانبهم وكسر شوكتهم، فاستمرت المواعيد والقراءات والاستماعات والسماعات، وذهب ببركة إقامته كثير من البدع المؤسّسة

١. المصدر نفسه : ٥٤ .

٢. المصدر نفسه : ٥٥ .

في المسجد الشريف منها: صلاة الرغائب التي روي أنها تصلّى ليلة أول جمعة من شهر رجب. أدركت القاضي سراج الدين الآتي ذكره يصلّيها في جماعة في الروضة المشرفة بلا نكير، ولا معارض، وسنده في ذلك ما رواه فيها وأخذ به كثير من الصوفية. إلا أن هذه المسألة لا تتعلّق بالشيعة»^١.

وأما المسألة الأخرى التي لا تتعلّق أصلاً بالشيعة واليعمرى كذلك لا يسندها إليهم فهو الخبر الذي يقول عنه اليعمرى:

«واتفق أن جاء إلى المدينة في أيامه رجل من اليمن ادّعى أنه شريف، كان له شكالة حسنة، مع طول قامته وسكون وحشمة، وكان معه جماعة في طوله يتبعونه ويعظمونه، فأظهر أنه صاحب الزمان، وسكن مع أصحابه في دار النفيس شامي المسجد الشريف، فانعطف عليهم الناس وهادوهم، وتمكنوا من خاطر الفاخري تمكيناً جيداً، ووعدوه أنه يكون عنده من المقربين إذا خرج، فأقام على ذلك مدة تُهدى إليه البذلات الرفيعة، والموائد الفاخرة تجري عليه من عنده، ومن عند إخوانه جماعة من الشرفاء، وكان في حفظ نفسه ومراعاة رئاسته عجباً، فلما طال مقامه وأبطأت عاداته تكعكع عنه الناس قليلاً، فلما أحسّ بذلك سافر إلى العراق، فلم يطلع بعد ذلك خبره.

ثم ظهر بعد ذلك رجل من أهل تونس وكان والدي رحمه الله يعرفه في تونس هو وأبوه، يُقال له: ابن حماس، ظهر بهذه الطريقة، واتّسم بأنه من أرباب الحقيقة، وانعطف عليه هذا الطواشي وغيره، فأسكنوه وقربوه، وأتحفوه بأنواع الملابس وفاخر الأطعمة، وكان قد تبذن وسمن من كثرة ما يأكل. وكان يقول: الآن قام من عندي الخضر عليه السلام وقال لي: كذا وكذا، إلى أن قال: لي ملك كذا وكذا. ثم ترقّى حتى قال: كلمني القلم، ورأيت الملكوت، وأنواعها من هذه الترهات والخزعبلات، وقام عليه جماعة من أهل الخير، وبلغوا

١. المصدر نفسه : ٥٦ .

الحاكم مقالته ونصب خيالاته، فأدعي في مجلس كبير وحضره شيخ الخدام، وجماعة من لفيف العوام، فسألوا عما نقلوا عنه، فكان يقول مقالة غير مقالة الآخر، لم يجتمع على الشهادة اثنان فخلّي سبيله، ثم سافر إلى القاهرة واشتهر بها ذكره وكثر أتباعه، ثم انتقل إلى العراق فقيل: إنه قُتِلَ بها.^١

ويبدو أنّ التشيع في المدينة في ذلك الزمان كان مدعوماً بحماية بعض الأشراف الذين يعتنقون المذهب الإمامي ومنهم «آل مهتّا» الذين ذكرهم اليعمري في هذا الكتاب وأشار إلى بعض أخبارهم ومن ذلك ما ذكره عن بعض المشايخ الكبار المسمّى بعلي الواسطي الذي كان آل مهتّا يعتقدون به اعتقاداً عظيماً «حتى كانوا يصدرون عن رأيه، ويتبركون بعصاه وثوبه» إلا أنّ اليعمري لم يذكر شيئاً عن تشيع الواسطي هذا واكتفى بالإشارة إلى أنّه كان يقيم دهرًا في المدينة ودهرًا في العراق.^٢

ثمّ يشير اليعمري في خلال حديثه عن بعض المشايخ المنتمين إلى مدرسة الشهابية ممّن كانوا يسكنون المدينة أيضاً، يشير إلى الشيخ يعقوب الشريف الذي كان فقيهاً معروفاً «كان له فقه وعلم واشتغال وعليه هيبة وجلالة» ويؤكد اليعمري أنّ هذا الشريف «كان له غيرة عظيمة على أهل السنّة» وأنّه كان «لا يزال ينكر المنكر، ويتعرض لأهل البدع فيأخذ منهم بلسانه فيسفهمهم، ويحطّ منهم، وكان الوقت ليناً على حال أهل السنّة لا يتمكن فيه من القيام بالحق، كما هو اليوم الحمد لله».

ويمكننا استنباط ما يقصده المؤلّف من هذه الجملة التي أعاد تكرارها كثيراً كما أنّ ما يعنيه بالغيرة في مقابل أهل السنّة هم الشيعة الإمامية في تلك المدينة. وفي الواقع يقسم اليعمري الخواطر التي ذكرها في حياته إلى مرحلتين: المرحلة الأولى وهي المرحلة التي كان فيها الشيعة أقوياء وذوي نفوذ كبير، ومرحلة ثانية تمّ فيها تقليص نفوذ الشيعة وإضعافهم

١. المصدر نفسه : ١٠١ - ١٠٣ .

٢. المصدر نفسه : ١٣٦ .

بجهود السلطان وجماعة من علماء أهل السنة، وهو ما أشار إليه في هذا الموضوع من كتابه، فيسرد عندئذ قصة دفاع يعقوب الشريف بالشكل المذكور. وفي ذلك الوقت كان هنالك رجل من كبار علماء الإمامية واسمه يعقوب بن الصفيّ ينادي بأعلى صوته في وسط الروضة النبوية الشريفة قائلاً:

إن كان رفضاً حَبَّ آل محمد فليشهد الثقلان أني رافضي

فيفزع من ذلك أهل السنّة، وكان له في مثل هذا التعصب أمثال وله أعوان، فأنكر الشريف يعقوب عليه، وباحثه وخطأه في مسائل بحث فيها، فرفع الأمر إلى الأمير منصور، فرفع الشريف ورُمي في الحب، ولم يخرجوه منه حتى غرّموه ألف درهم، وكان لا مال له، فضيقوا عليه ونكلوا به وتشفّوا من أهل السنّة، فجُمعت له غرامته ودفعت إليهم.^١

وفي موضع آخر من كتابه أشار اليعمريّ إلى أسرة أخرى باسم العبايية [العباشية] بقوله: «فرقة كبيرة من أولاد المدينة منهم يوسف الشربشير شيخ الشيعة وفقههم» ثمّ يُضيف قائلاً: «وكان جدّهم مغربياً سنياً، تزوّج من بنات المدينة ومات عن أولاد صغار، فنشأوا في مذهب أمّهم، ثمّ كثروا وانتشروا وتمذهبوا بمذهب الشيعة وغلوا فيه». وكان اليعمريّ قبل هذا قد ذكر محمّداً، ابن محمد بن يحيى الخشيّ وقال: «وكان قد ربّاه والده محمد بن يحيى، وأنشأه الشيخ محمد بن إبراهيم المتقدم ذكره... استنقذه الله من تلك الطائفة».^٢

تشير كلّ تلك الأخبار إلى أنّ المذهب الشيعيّ كان مدعوماً ومحميّاً من داخل المدينة المنورة نفسها بينما كان أهل السنة مدعومين من قبل المجاورين فقط. وجدير بالذكر أنّ اليعمريّ اعتمد في تأليف كتابه: «نصيحة المشاور وتعزية المجاور»

١ المصدر نفسه : ١٥٢ - ١٥٣ .

٢ . المصدر نفسه : ٢٨١ - ٢٨٢ .

ونقل الكثير من أخباره على كتاب آخر يُسمّى «ذيل الروضتين» لأبي شامة ولا سيّما فيما يخصّ تاريخ الأيوبيين، وأشار فيه إلى وصول المماليك إلى سدّة الحكم سنة (٦٥٨هـ) وما قاموا به من أعمال تتعلّق بإعادة وتجديد مسجد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد الحريق الذي أصابه، وذكر في ذلك بيتين من الشعر هما:

لم يحترق حرم النبي لحادث يخشى عليه ولا دهاه العار
لكنما أيدي الروافض لامست ذاك الجنب فطهرته النار
ثمّ تطرّق بعد ذلك إلى موضوع التتار والمغول وسقوط بغداد وتكرار قصّة ابن العلقمي^١ وأما روايته التي تعود إلى قرابة مئة عام بعد سقوط بغداد فهي نفسها التي تُسببت إلى الشيعة مع مرور الوقت على حين أنّ تلك النظرة لم تكن موجودة أبداً في النصوص التي كُتبت في وقت الحادثة بل وحتى بعد مرور عقدين أو ثلاثة عليها، ثمّ إنّ اليعمريّ لم يُشر إلى المصدر الذي استقى منه تلك الحادثة إلاّ أنّ المُصحّح نسب ذلك إلى كتاب: «البداية والنهاية» لابن كثير الذي عاش بعد اليعمريّ بمدة طويلة وبذلك لا يمكن أن يكون الكتاب المذكور هو المصدر الذي استند إليه اليعمريّ. ومهما يكن من أمر فمن الواضح أنّ تلك القصّة موضوعة ومنسوبة إلى الشيعة ظلماً وجوراً لكنّها تمكّنت من السيطرة على أذهان أهل السنة بشكل ممنهج عبر التاريخ.

وبعد ذلك يعود المؤلّف مرّة أخرى إلى الحديث عن المدينة المنورة وأمّا الصفحات التي كتبها في بداية كتابه فكانت استطراداً وبياناً لحساسيّته تجاه الإمامية الذين كان يواجههم في المدينة ويدخل معهم في جدال ونقاش. والحقيقة أنّ اليعمريّ ومتى أشار في أيّ موضع في كتابه المذكور إلى أهل البدع ومحاربتهم والتصديّ لهم كان يقصد بذلك الشيعة الإمامية. وفي أثناء ذكره للشخصيّات التي كانت موجودة في المدينة ممّن كانوا يحامون عن

١. المصدر نفسه : ٣١٣ - ٣١٥ .

المجاورين أو كانت لهم معهم علاقات وثيقة، قال اليعمرى: «وكان من أعظم الناس موالاة للمجاورين واختلاطاً بهم القاضي نجم الدين مهنا بن سنان، كان هو القاضي في الحقيقة من بين سائر قرابته، وبه يناط الحلّ والعقد، وإليه ترجع محاكمات الشيعة وأنكحتهم وعقودهم وغير ذلك». من الواضح أنّ الشيعة كان لهم قاضيهم الخاصّ بهم في ذلك الزمان كما كان لكلّ واحدة من الفرق السنيّة قاضيهم الذي ينتمي إلى مذهبهم (كالمالكية أو الشافعية أو الحنفية). وقد أسند مُحقق الكتاب ما ورد فيه من المعلومات عن مهنا بن سنان إلى: («الدرر الكامنة» ٤ : ٣٦٨ «١٠٠٣») و: («المغانم المطابة» الورقة ٢٦٧ / أ) و: («التحفة اللطيفة» : شرح حال، العدد «٤٣٠٣»).

ثمّ يستأنف الكاتب كلامه قائلاً:

«وكان مع هذا يتحبّب إلى المجاورين ويمدحهم بالفضائل الحسنة ويستتضيهم الحوائج، ويحضر مواعيدهم ومجالس الحديث، ولا يُصلي قطّ إلاّ في الروضة المشرفة، وكان يستعمل التقيّة كثيراً»^١. «وكان إذا نسخ كتاباً ومرّ به ذكر أبي بكر وعمر، يترضى عليهم بالخطّ تقيّة، وكان يحطّ على أصحابه من الفقهاء الإمامية ويتبرأ منهم، وله فيهم هجو ظريف فمن ذلك قوله:». وقد وردت هذه الأبيات أيضاً في «المغانم المطابة ٣ : ١٣٠٦»، وذكر سبعة عشر بيتاً من الشعر المذكور وله في ذلك نقد ولا سيّما على بعض هؤلاء الفقهاء المدّعين:

وينسب نفسه للعلم حمقاً وعند الله فهو من الطّغام
ويفتي المسلمين بغير علم ويخبط خبط عشوى في الظلام...
وعلق بعد ذكر الأبيات قائلاً: «وكان لديه فضيلة وعربية وآداب، وحسن محاضرة.

١. المصدر نفسه : ٣٣١ .

توفي سنة أربع وخمسين وسبعمائة»^١.

كان ذلك شرح حال ابن مهنا العالم والقاضي الشيعيّ ذي النفوذ في المدينة في ذلك الوقت؛ فأما ما يتعلّق بما إذا كان ابن مهنا قد قال تلك الأبيات بشأن الفقهاء من أبناء مذهبه أو في آخرين غيرهم فلا يمكن الحكم فيه إلاّ بعد مراجعة أصل الأبيات ولا أعلم ما إذا كان قد ورد ذلك في مصدر آخر أم لا لأنّ تلك الأبيات تشير إلى موضوع شامل وعام. وأمّا الفصل التالي من كتاب: «نصيحة المشاور وتعزية المجاور» فيتعلّق بالتعريف ببعض القضاة وأئمة الجماعة والجمعة، فقد كتب اليعمريّ قائلاً:

«فأول من أدركته من قضاتنا وأئمتنا الشيخ الإمام العلامة سراج الدين عمر بن أحمد الحضري بن ظافر بن طراد بن أبي الفتوح الأنصاري الخزرجي، كان - رحمه الله - فقيهاً مجيداً أصولياً نحويّاً متفتّناً في علوم جمّة... قدّم المدينة سنة اثنتين وثمانين وستمائة [من جانب السلطان المملوكيّ بالطّبع] متولياً للخطابة، وكانت الخطابة بأيدي آل سنان بن نميلة الشريف الحسيني، وكان الحكم أيضاً راجعاً إليهم، ولم يكن لأهل السنة خطيب ولا إمام ولا حاكم منهم، والظاهر أنّ ذلك منذ استولى العبيديون على مصر والحجاز، فإنّ الخطبة في المدينة كانت باسمهم».

وبعبارات مبهمّة وغامضة يشير اليعمريّ بقوله: «فلما كان في سنة اثنتين وستين وستمائة، وقع في مصر قحط ووباء لم يُسمع في الدهور بمثله، وكاد الخراب يستولي على وادي مصر... واشتغل العبيديون بما أصابهم من ذلك، فحينئذ تغلّب الخلفاء العباسيون على الحجاز، وأقيمت الخطبة لهم من ذلك العهد إلى يومنا»^٢.

لاحظ كيف أقحم اليعمريّ هذه العبارات وسط كلامه وحديثه عمّا آلت إليه حالة الخطابة في المدينة في زمن العبيديين وانتقالها إلى آل سنان بعدهم!

١. المصدر نفسه : ٣٣٢ - ٣٣٣ .

٢. المصدر نفسه : ٣٣٦ .

ثم يواصل اليعمريّ كلامه قائلاً: «وكان أخذ الخطابة من آل سنان في سنة اثنتين وثمانين وستمائة، واستمروا حكماً على حالهم، وكان لأهل السنّة إمام يصلي بهم الصلوات فقط، وكان السلطان يومئذ الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحى، فأولّ خطيباً خطب لأهل السنّة القاضي سراج الدين، وكان السلطان بعد ذلك يبعث مع الحاج شخصاً يقيم لأهل السنّة الخطابة والإمامة إلى نصف السنة، ثمّ يأتي غيره مع الرجبية إلى ينبع، ثم إلى المدينة، وكلّ من جاء لا يقدر على الإقامة نصف سنة إلاّ بكلفة ومشقة، لتسلط الإمامية من الأشراف وغيرهم عليه»^١.

وبعد سراج الدين عمر جاء خطيب آخر يُسمّى شمس الدين الحلبيّ: «ثمّ من بعده شرف الدين السنجاري، ثمّ استقرّ سراج الدين المذكور خطيباً فخطب بالمدينة أربعين سنة، ثمّ سافر إلى مصر يتداوى فأدركه الموت بالسويس متوجّهاً إلى مصر، وذلك في سنة ست وعشرين وسبعمائة».

«وأما الأئمة من أهل السنّة فلم يزلوا بالمدينة قبل هذا التاريخ، وأدرت ذرية «المجد» إمام الحرم، كان معظماً عند الشرفاء محبباً إليهم، وقد ملك أملاكاً أصلهم من تمليك الشرفاء له كأثارب وغيرها... وكان منهم «النظام» له ذرية وكان لهم بالمدينة أملاك، وذكر أنهم أقاموا في منصبهم مستضعفين يجنيهم الشرفاء ويؤذونهم، فارتحلوا بأولادهم وتركوا أملاكهم. وكنت أسمع من كبار أهل المدينة أنّ الشرفاء بعثوا إليهم وأمنوهم على أن يرجعوا إلى المدينة، فلم يفعلوا حتى أخذت أملاكهم وتملكت. وبالمدينة موضع يسمى: «النظام» منسوباً إليهم، وكان موضع يقال له «الإمامية» منسوب إلى إمام المسجد الشريف».

ثمّ يستأنف اليعمريّ حديثه قائلاً:

«فلما قرّر القاضي سراج الدين بالمدينة خطيباً فلطالما عملوا معه من القبائح والأذى

١. المصدر نفسه : ٣٣٦ .

ما لم يصبر عليه غيره فصبر واحتسب، وأدركت من أذاهم له أنهم كانوا يرمونه بالحصاء وهو يخطب على المنبر. فلما كثر ذلك منهم تقدّم الخدام وجلسوا بين يديه، فكان هذا هو السبب في إقامة صفّ الخدام يوم الجمعة قبالة الخطيب، وخلفهم غلمانهم وعبيدهم خدمة وحماية للقضاة، وتكثيراً للقلة ونصراً للشريعة. وكان يصيح باب بيته عليه مغلوقة، وفي بعض الأحيان يلطخونه بالنجاسة ويتبعونه بكلّ أذى وهو صابر، وربّما عذرهم لاحتراقهم على خروج منصب الخطابة من أيديهم بعد توارثهم له، فقد كان «سنان» قاضي المدينة، خطيبها للجمعة آنذاك، وكذلك أبوه عبد الوهاب بن يحيى، فيما يغلب على ظني»^١.

ويُضيف اليعمرى قائلاً:

«حكى لي الشريف سلطان بن نجاد أحد شيوخ الشرفاء الواحدة قال: أدركت القاضي شمس الدين سنان يخطب على المنبر ويذكر الصحابة ويترضى عنهم، ثمّ يذهب إلى بيته فيكفر عن ذلك بكبش يذبحه ويتصدّق به، يفعل ذلك كلّ جمعة عقب الصلاة». ثمّ يذكر المؤلّف في كتابه خبراً عن «رحلة ابن جبير» وعدّد ذلك من غرائبه التي رآها في رحلته فقال: «أنّه قدم المدينة زائراً مع الحاج، فحضر صلاة الجمعة وهم بالمدينة. قال: فطلع الخطيب وكان من الشرفاء الإمامية فخطب ثمّ جلس في أثناء الخطبة، وتقدم من عنده غلمانهم يطوفون على الناس ويأخذون منهم شيئاً للخطيب فجمعوا له شيئاً ثمّ جاؤوا به إليه فردّه، وقال: لا يكفي، فعادوا على الناس الرجال منهم والنساء فزادوهم فلم يقبل، والناس في ضيق من تأخير جمعهم. قال: ثمّ لم يزل كذلك حتى قرب وقت العصر فنزل وصلى»^٢.

والغريب في الأمر أنّ سراج الدين المذكور كان قد تزوّج بنتاً من «القيشانيّة» وكان

١. المصدر نفسه : ٣٣٨ .

٢. المصدر نفسه : ٣٣٩ .

«القيشاني» رئيس الإمامية وفتيها. وكان المصحح قد نسب الرجل المذكور في هامشه إلى مدينة: «كاشان». ثم أضاف قائلاً: «حتى قيل: إن المدينة لم يكن بها من يعرف مذهب الإمامية حتى جاءها القيشانيون من العراق».^١

ويقول المؤلف:

«وذلك أنهم كانوا أهل مال عظيم، فصاروا يؤلفون ضعفة الناس بالمال ويعلمونهم قواعد مذهبهم، ولم يزالوا على ذلك حتى ظهر مذهبهم وكثر المشتغلون به، وعضده الأشراف في ذلك الزمان، ولم يكن لهم ضد، ولا في مصر ولا في الشام من يلتفت إليهم، لأن الملك العادل نور الدين الشهيد كان حاكماً على البلدين، لكن همّ الجهاد ولا يستقر له قرار. ثم ولي بعد الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، فسار على طريقة الملك العادل وزاد عليه، وكان صاحب المدينة أبو فليته قاسم بن المهنا يحضر معه الفتوحات، وبلازمه في الغزوات، فلم يكن أحد يجسر على الكلام في الإمامية في ذلك الزمان. ولما صاهرهم السراج انكف عنه الأذى قليلاً، وصار يخطب ويصلي من غير حكم ولا أمر ولا نهي. وكان إذا عقد في البلد عقد نكاح بغير إذن علي بن سنان وأمره، طلب الفاعلين لذلك وعزّهم وسلط عليهم الشرفاء».^٢

وقال كذلك:

«وكان المجاورون وأهل السّنة إذا أرادوا عقد نكاح أو فصل حكومة على مذهبهم، يأتون والدي ليعقد لهم أو يصلح بينهم. فيقول لهم: لا أفعل حتى يأتيني كتاب ابن سنان، فيذهبوا إلى علي بن سنان فيعطونه ما جرت به عادته، فيكتب لهم إلى والدي ما صورته: (يا أبا عبد الله اعقد نكاح فلان على فلانة)، أو (اصلح بين فلان وفلان). ولم يزل الأمر

١. المصدر نفسه : ٣٣٩ .

٢. المصدر نفسه : ٣٤٠ .

على ذلك حتى كانت أيام شيخ الخدام الحريري، وقد تقدم ذكرها وتاريخها، فكثرت المجاورون وسألوا الملك الناصر محمد بن قلاوون أن يكون لأهل السنّة حاكم يحكم بينهم، ويحملهم على مذهبهم، فجاء تقليد بذلك للقاضي سراج الدين وجاءته على ذلك خلعة وألف درهم، وكان فيه معرفة ومداراة. فقال: أنا لا أتولى حتى يحضر الأمير منصور بن ججاز، فأحضره. فقال له السراج: قد جاءني من السلطان مرسوم بكذا، وأنا لا أقبل حتى تكون أنت المولي لي، فإنك إن لم تكن معي لم يتمّ أمري ولا ينفذ حكمي. فقال له: قد رضيت، وأذنت فاحكم ولا تغير شيئاً من أحكامنا ولا حكمانا. فاستمر الحال على ذلك يحكم بين المجاورين وأهل السنّة»^١.

ثم يُضَيِّفُ البِعْمَرِيُّ قَائِلاً:

«وآل سنان يحكمون في بلادهم على جماعتهم وعلى من دعى إليهم من أهل السنّة، فلا يقدر أحد على الكلام في ذلك والتقدم في الأمور لهم، وأمر الحبس راجع إليهم، والأعوان تختص بهم، والإسجالات تثبت عليهم، والسراج يستعين بأعوانهم وبحبسهم. استمر ذلك الحال مدة السراج حتى مات، وكان السراج - رحمه الله - يواسي الضعفاء ويتفقد الأراامل والأيتام بیره وزكاته، ويقصدهم في بيوتهم بنفسه، وكان لا يرد من سأله قرضاً، بل يأخذ منه ويعطيه ما أراد، وكان قبل ولايته الحكم طوعاً للناس الذين عاصروه من أهل الصلاح». وهنا يقدم البِعْمَرِيُّ شرحاً حول الخدمات التي قام بها السراج لكنّه يشير بقوله: «فلما وُلِّيَ الحكم تنكرت عليهم أخلاقه، وصار يرمي عليهم كلمات يغيظهم بها وإن لم يكن تحتها طائل، فنفرت نفوسهم منه، وتفرقوا عنه». ويُعَدُّ جمال الدين المطري [صاحب كتاب التعريف الذي يُعتبر من أهمّ المصادر التاريخية للمدينة، وهو كذلك شيخ البِعْمَرِيُّ الذي نقل عنه الكثير من الأخبار] تلميذاً للسراج. وهكذا يستمرّ البِعْمَرِيُّ بذكر

١. المصدر نفسه : ٣٤١ .

أسماء بعض الشخصيات وتقديم شرح وافٍ عن سيرتهم^١.
يقول اليعمري: «وكان في أيامه رجل إمامي من حلب، وكان يسكن في «دار تميم الداري»، له ثروة و رئاسة، فكان يجلس السراج على طريقه عند باب الرحمة ، فإذا دنا منه يقول له: ﴿نَاصِيَةٌ كَاذِبَةٌ خَاطِئَةٌ﴾^٢ هكذا أبدأ وهو لا يجاوبه ولا يعيد الكلام له. حتى انتقم الله له منه، وذلك أنه كانت له جارية كائنه تقم عليها شيئاً فعاقبها حتى قتلها، فبلغ ذلك الأمير منصور فمسكه ودخل بيته وأخذ منه ألف دينار»^٣.
ثم ذكر المؤلف عدداً من الخطباء الذين تلو السراج في الخطابة والصلاة ومنهم يعقوب بن جمال القرشي وبهاء الدين بن سلامة المصري الذي توفي سنة (٧٤٥هـ) ثم ولي بعده شرف الدين أبو الفتح محمد بن القاضي عز الدين أبي عبد الله محمد^٤.
ويصف اليعمري شرف الدين المذكور بأنه كان «فقيهاً فروعياً حافظاً للمذهب» وتلك مقدمة لشرح ما قام به فيما بعد ضد الإمامية، ومن ذلك قوله:

«وكان في القاضي شرف الدين شدة على الأشراف، وكان له هيبة عظيمة سقاها المرّ وأذاقهم الصبر، وأمّا سطوته على الإمامية وتوبيخه لهم في المحافل وسبهم على المنبر، فأمر مشهور لا يحتاج إلى وصف، ولا تكاد السنين تبديد ذكره. وكان إذا قام في الأمر لا يرجع عنه ولو خوف في عاقبته، وكان متمسكاً بالسنة يتبع أشدها ويحمل نفسه على أشقها... وهو الذي أبطل صلاة النصف من شعبان، وكان تبطيلها عزيزاً على النفوس فقد اعتادوا صلاتها، ومبتدعات كانت معها منها: زينة المسجد الشريف، وكثرة الوقيد، وكثرة النساء واختلاطهم بالرجال، والصياح من الصغير والكبير حتى لا يبقى للحرم حرمة ولا يملكه

١. المصدر نفسه : ٣٤٢ - ٣٤٤ .

٢. سورة العلق : ١٦ .

٣. نصيحة المشاور و تعزية المجاور: ٣٤٥ .

٤. المصدر نفسه : ٣٤٧ .

القوم. وكان له غيرة على أهل السنّة وإن علم من كثير منهم الكراهة له، فيسدد أحوالهم ويقيم حرمتهم عند أمير المدينة ويجاهد بنفسه في حقهم»^١.

وله كتاب اسمه: «الجواهر السنّية في الخطب السنّية»، والظاهر أن إطلاق اسم «الخطب السنّية» في عنوان هذا الكتاب يشير إلى وجود وضع خاص للمجادلة في ذهنه بينه وبين المجتمع. قلّ أن يخلو منها خطبة إلاّ وفيها ذكر البدعة وأهلها، وتوبيخهم لما هم عليه. ويستأنف المؤلّف كلامه قائلاً:

«ونزل مرّة من على المنبر لضرب رجل من الإمامية كان يتنفل زيادة على تحية المسجد، ويؤدّي ظهر الجمعة أربعاً في أثناء ذلك التنفل، لأنّهم لا يعتقدون إقامة الجمعة إلاّ خلف إمام معصوم، وهذا كان عادتهم معه ومع غيره، فنهاهم عن ذلك فانتهوا إلاّ من قوي تشيعه وتعصبه، فكان يصيح عليهم وهو على المنبر ويأمر بجرّهم إلى عنده فيضربهم. وكان الإمامية يصلّون صلاة العيد في المسجد الذي في المصلّى المنسوب بزعمهم إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فمنعهم من الصلاة فيه، وألزمهم بالدخول مع أهل السنّة في المسجد الموجود اليوم»^٢.

تشير عبارات اليعمرّي بوضوح إلى أمور دقيقة ومهمّة حول عقيدة الإمامية بشأن صلاة الجمعة وينقل صراحة أنّهم كانوا يعتقدون عدم جواز إقامة الجمعة إلاّ خلف إمام معصوم. وكلّنا يعلم أنه في العهد الصفويّ حدث الكثير من الاختلاف في الرأي حول العبارات الفقهيّة المنقولة عن القرن السابع والثامن الهجريّين وكذلك حول ما كانوا يعتقدونه بشأن إقامة صلاة الجمعة. وأمّا النقطة الأخرى في عبارات اليعمرّي فهي السلوك القبيح والتصرّف المشين الذي كان الخطيب السنّي المذكور يمارسه مع الشيعة آنذاك ولا شكّ في أنّ سلوكه هذا كان مدعوماً بحماية السلطان المملوكي.

١. المصدر نفسه : ٣٤٩ .

٢. المصدر نفسه : ٣٤٩ .

هذا، ويضيف اليعمرى قائلاً:

«وكان الإمامية يصلون صلاة العيد في المسجد الذي في المصلى المنسوب بزعمهم إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فمنعهم من الصلاة فيه، وألزمهم بالدخول مع أهل السنة في المسجد الموجود اليوم، وذلك في يوم عيد الأضحى من سنة ست وثلاثين وسبعمئة. وكان عليهم سيفاً لا يُعتمد، لكنّه لم يتعرّض لحكامهم، فكانوا في أيامه على عادتهم مع السراج، وكان يجلس في حبسهم ويستعين بغلمان الوالي، وكان حبس المدينة واحداً يجلس فيه الأمير والقاضي، وهو الموجود اليوم في ساحة القلعة. كان لي معه - أعني القاضي شرف الدين - مقامات سوء لا يحسن ذكرها هنا، لأنّها مبنية على حظوظ نفوس الحسدة الذين كانوا حوله، حتى إني وصلت أنا وهو إلى الملك الناصر لما حجّ حجّته الثالثة سنة إحدى وثلاثين وسبعمئة، فأمره السلطان أن لا يتعرّض لي وأن ينصفي من نفسه، ووصى صاحب المدينة بمراعاتي والنظر في الأحوال التي أشكوها منه، فلم يفد فيه ذلك»^١.

«توفي القاضي شرف الدين رحمه الله بالمدينة ودُفن شامي قبة سيّدنا عثمان وذلك في سنة خمس وأربعين وسبعمئة. ثمّ وُلّي بعده الحكم والخطابة والإمامة الشيخ الإمام العلامة تقي الدين عبد الرحمن بن جمال الدين بن عبد المؤمن بن أسيد بن عبد الملك الهوريني الشافعي المصري، قدم المدينة في ذي الحجة آخر سنة خمس وأربعين».

ثمّ قال اليعمرى:

«وفي تلك السنة استنابني في الحكم عنه فسلكت مع الناس سبيل السياسة وسدّدت الأحكام، وجريت على الصلح بين الخصوم، فمال إليّ أهل المدينة، ورأوا أني لا آخذ منهم شيئاً في حكم ولا إثبات، ولا وراقة، بل ربما أعطي من عندي من أتحقّق ضرورته من الغرماء، فأحبّني أهل البلد ومالوا عن «قضاة الإمامية» واعتزلوهم وتركوا المحاكمة عندهم،

١. المصدر نفسه : ٣٥٠ .

حتى إن القاضي حسن بن علي بن سنان الملقب عزيز، صار يجلس على باب زقاقنا فإذا رأى الخصمين دعاهما إليه فلا يلتفتان إليه، لأنهم كانوا إذا حكموا ألحقوا المحكوم له رسولاً أو ورقة يطلبون منه شيئاً، وإن كتبوا ورقة طلبوا عليها أجراً، ويقبلون من الشهود من كان من رعاي الناس. وبلغني أنهم اجتمعوا بالأمر طفيل وشكوا عليه ما يلقون مني، فقال لهم: إذا سكت عنكم وعن أحكامكم فلا تطلبوا منه غير ذلك. وقال لي القاضي نجم الدين مهنا بن سنان - وكان أعلمهم وأرأسهم: قطعت رزقنا يا فلان»^١.

ثم يضيف اليعمرى قائلاً:

«ولم أزل معهم كذلك حتى حمل ذكرهم، وماتوا أحياء، ولم يبق لهم في البلد أمر ولا نهي إلا في الشيء التافه والأمر النادر».

وقال أيضاً:

«ولقد أدركت من حكاهم فوق عشرة من آل سنان ومن الصفيان الذين كانوا عند رباط المعين كلهم يحكم ويفصل الخصومة، إلا أن الحكم كان له إذا حكم عليه القاضي من آل سنان أو يقول: ارفعني إلى الفقيه فيرفعه ولا يراجعه، وكان الفقيه علي يصلح ويسدد من غير أن يتطلع لشيء بخلاف القضاة يومئذ، ثم لم يزل أمرهم يتقاصر، وعددهم يقل، حتى مات كبارهم. ثم إن الفقيه الهوريني كف بصره في أثناء تلك السنة بسبب ماء نزل في عينيه، فسافر إلى مصر مع الحاج ليقده عينيه ويعود إلى المدينة، واستمرت نائباً عنه في سنة سبع وأربعين، وشدت على الإمامية في نكاح المتعة ونكلت بفاعلها، وحملت الناس على مذهب مالك، وأحملت البدعة وأظهرت السنة»^٢.

١. المصدر نفسه : ٣٥٤ .

٢. المصدر نفسه : ٣٥٥ .

وقال كذلك:

«ثم وُلِّي الحكم والخطابة والإمامة القاضي الأجل الخطيب المصقع، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن زكي الدين عبد المعطي بن سالم بن عبد العظيم بن محمد الكناني المصري الشافعي العسقلاني المحتد - المعروف بابن السبع - ... وكانت ولايته وولاية الأمير سعد في سنة واحدة، وهي سنة خمسين وسبعمئة. ولما استقر الأمير سعد في المدينة، بدأ بمنع آل سنان وغيرهم من التعرض للأحكام وعقد الأُنكحة وغيرها، وردَّ الأمر جميعه لأهل السنَّة تقريباً إلى قلوب السلطنة بإظهار السنَّة وأهلها، وإخمال البدعة وأهلها. وأمر بالنداء بالمدينة في يوم الثامن والعشرين من شهر ذي الحجة أحد شهور سنة خمسين وسبعمئة: أن لا يحكم في المدينة مع القاضي شمس الدين غير فلان. ومن تعرض ذلك فلا يلومن إلا نفسه. فمن يومئذ انقطع أمرهم ونهيمهم بالكلية، وظهر علم أهل السنَّة»^١.

ثم يستطرد اليعمري قائلاً:

«ولما تمَّ الأمر لأهل السنَّة وانقطع دابر القوم، وقع بينهم افتراق الكلمة وطهرت من الفتنة»^٢. «ولمَّا رأيتهم على هذا الحال، وقد كثر بينهم القيل والقال، لزمْتُ بيتي رغبة في السلامة».

ومهما يكن من أمر فإنَّ الواضح أنَّ السلطنة المملوكية كان لها الأثر الفعَّال في تقليص قدرة الشيعة وتحديد نفوذهم في المدينة، والظاهر كذلك أنَّ المماليك كانوا قد وضعوا خطةً طويلة الأمد لتنفيذ مآربهم. والحقيقة أنَّ موضوع حذف التشييع والقضاء على الشيعة في كلِّ مكان كان جزءاً من السياسة الدينية للسلطين المماليك - بدءاً من حلب وانتهاءً ببلبنان ومن هناك إلى المدينة ومكَّة بل وكانوا ينوون القضاء على التشييع حتى في مصر نفسها -

١. المصدر نفسه : ٣٥٩ .

٢. المصدر نفسه : ٣٥٩ .

فلقد كان لهذا الأمر هدفٌ سياسيٌ فضلاً عن الهدفِ الدينيِّ المعروف، لأنَّ المماليك - على أيِّ حال - كانوا يتخوفون من استيلاء الشيعة على سلطانهم وتوليِّ الأمور في بلدانهم. وهكذا، يمكننا وضع رسالةٍ بحثيةٍ مستقلةٍ بشأن المسار الإعلاميِّ والتبليغيِّ المضادَّ للشيعة في عهد المماليك.

وبعد ذلك يقول اليعمريُّ:

«ثمَّ كشف الحال أنَّهم جماعة الأمير جواز بن منصور قدم المدينة متولياً لها بمرسوم السلطان، ومعه القاضي تقي الدين الهوريني متولياً... فحاول الأمير جواز رجوع الإمامية إلى ما كانوا عليه، وأذن ليوسف الشريشير أن يحكم بين الغمراء، وظهرت كلمتهم، وارتفعت رايتهم»^١. «وأظهر الأمير لي وللمجاورين الجفاء والغلظة في الكلام، فسافر الناس في أثناء السنة إلى مصر وتحدثوا بذلك فبلغ السلطان فاغتاظ لذلك، وبلغه أيضاً ما جرى للشيخ ضياء الدين الهندي من الضرر في القلعة... فلمَّا كان في أول سنة ستين وسبعمئة توفي القاضي تقي الدين إلى رحمة الله تعالى... فوُلِّي المنصب الشريف الشيخ الإمام العلامة المتفنن تاج الدين محمد بن عثمان الكركي... وجاء إلى المدينة بأخلاق رضية، ونفس زكية»^٢. وهنا يذكر اليعمريُّ أنَّ نَمَّةَ اختلافات وقعت بين الكركيِّ وبعض الخدَّام بقوله: «ثمَّ سعوا بينه وبين الخدَّام فأفسدوا ما بينه وبينهم من الألفة والمحبة... فأفسدوا عقيدته في أصحابه، وكان رجلاً متخيلاً... فاستحكم الفساد، وصارت آراؤه تصدر عن مشاورة الشبان، وبدت منه أشياء لا تليق بعقله وحسن سياسته، ونفر عنه أكثر المجاورين والخدَّام، ومالت عنه قلوبهم واجتمعت كلمتهم على غيره» ثمَّ أشار اليعمريُّ إلى أنَّ الأمر قد بلغ

١. المصدر نفسه : ٣٦٥ .

٢. المصدر نفسه : ٣٦٥ - ٣٦٦ .

عزله هو شخصياً عن منصبه. «وكان قد عزلني عن نيابته في الأحكام»^١.
«وولي المنصب الشريف الشيخ الإمام العلامة جامع أشتات الفضائل، شمس الدين محمد بن سليمان الشهير الحكري المصري الشافعي، وصل المدينة المشرفة في ذي الحجة سنة ست وستين وسبعمئة»^٢.

ويبدو أن الحكري هو آخر شخصية احتلت المنصب المذكور بحسب ما ذكره اليعمري في كتابه: «نصيحة المشاور وتعزية المجاور» وذلك لوفاته هو بعد ثلاث سنين من تأليف الكتاب المذكور. وفي الفصل التالي تناول اليعمري شرح حال بعض الأمراء الذين شهدهم وعاشرهم، فيقول:

«فأول من أدركته من الأمراء الأمير عز الدين حماد بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنا بن حسين بن مهنا بن داود بن قاسم بن عبد الله بن طاهر بن يحيى بن حسين بن جعفر بن حسين بن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعن فاطمة الزهراء البتول وعن ذريتهما الطيبة الطاهرة، وحشرنا في زمرتهم، ونفعنا بمحبتهم»^٣.
ثم يقدم اليعمري شرحاً عن حال صلاح الدين الأيوبي في أثناء ذكره لحكام المدينة القدماء ومنهم الأمير قاسم بن مهنا وكيف أن هذا الأخير كان قد صحب صلاح الدين في كل غزواته وفتوحاته وتأسيسه به، ويبدو أن المصدر الرئيس الذي استقى اليعمري منه معلوماته هو كتاب: «الروضتين»^٤.

وبعد ذلك يقر اليعمري بلسانه قائلاً: «وقد خرجتُ بذكر هذين الملكين عن المقصود الذي أردناه لكن لمصلحة عظيمة»، ومع ذلك فقد خرج ثانية عن موضوع الكتاب

١. المصدر نفسه : ٣٦٨ .

٢. المصدر نفسه : ٣٦٩ .

٣. المصدر نفسه : ٣٧٠ .

٤. المصدر نفسه : ٣٧٢ - ٣٧٣ .

وبدأ يتحدث عن الوزير جمال الدين محمد بن أبي منصور الأصبهاني والجهود التي بذلها في بناء السور حول المدينة ليمنع عنها غارات الأعراب والبدو.^١

ومن خلال بيانه لفضائل الملك العادل شرع اليعمري بالحديث عن الأيوبيين وكيف أنهم استطاعوا الوقوف بوجه البدع في ذلك الوقت، قائلاً: «وأخرج الروافض من حلب وأعمالها، وشتت شملهم»، ثم يستمر اليعمري بذكر تلك الترهات التي دوّنها المؤرخون التابعون لبلاط الأيوبيين والمُشتغلين لحسابها، وأشار في أثناء ذلك إلى قيام الدولة الفاطمية وقال: «وقيل: كان والد عبيد هذا يهودياً من أهل سلمية من بلاد الشام، وكان حدّاداً، فلمّا دخل المغرب تسمّى بعبيد الله، وزعم أنّه فاطمي، وادّعى نسباً غير صحيح».^٢

ويستأنف المؤلّف عباراته المنكرة وتكراره المملّ وكلّها وليدة الخرافات والخزعبلات التي اصطنعها مُخالفو العباسيين والأيوبيين ضدّ الدولة الفاطمية وراحوا يروّجون لها في الأصقاع فكانت مائدة دسمة للمؤرّخين الذين لا يهتمّون سوى بنسخ المطالب وكتابة الموضوعات دون تروّ ولا تدبّر. يقول اليعمري: «وبقي هذا البلاء على الإسلام من أوّل دولتهم إلى آخرها... وفي أيامهم كثرت الروافض واستحكمت أمرهم»، ثمّ يذكر فهرستاً بأسماء الخلفاء الفاطميين الأربعة عشر بقوله: «... هو المهدي ابن رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وحجّة الله، ويقولون لطائفة أجهل من هؤلاء: هو الله الخالق الرازق».^٣

ثمّ أشار إلى بعض المطالب بشأن القرامطة والحكام الإسماعيليين وغير ذلك.^٤ وكلّها موارد مكرّرة في كتابه؛ ثمّ ذكر الجهود التي بذلها صلاح الدين للقضاء على الدولة الفاطمية (إلى صفحة: ٣٨٨). وأمّا آخر ما أشار إليه اليعمري في هذا الصّدّد فهو قوله:

١. المصدر نفسه : ٣٧٥ .

٢. المصدر نفسه : ٣٨١ .

٣. المصدر نفسه : ٣٨٣ .

٤. المصدر نفسه : ٣٨٤ - ٣٨٥ .

«واتَّفَق في سنة سبع عشرة وسبعمائة أن خرجت طائفة من النصيرية القائلين بقول العبيدين، القائلين بقولهم في بلاد الشام، وكان أكثر أتباع العبيدين القائلين بقولهم ظاهراً وباطناً في ثغور الشام، فخرجت هذه الجماعة النصيرية عن الطاعة وأقاموا شخصاً ادعوا أنه المهدي، وقاتلوا الناس، وادعوا أن المسلمين كفرة وأن دين النصيرية هو الحق، ورفعوا أصواتهم بقول: لا إله إلاّ علي، ولا حجاب إلاّ محمد. وبسبب أبي بكر وعمر، وخربوا المساجد، وجعلوها خمّارات، فخرج عليهم عسكر المسلمين فكسروهم، وقتلوا منهم جماعة واضمحل أمرهم، ومزقهم الله كل ممزق»^١.

من الواضح أن أدب هذا التقرير وهذا النوع من الإخبار قائم على أساس نشر الأكاذيب وتوجيه التُّهَم ويمكننا ملاحظة ذلك حتى في وقتنا هذا في مثل هذه المصنّفات. في الحقيقة، وكما أسلفنا قبل هذا فإن ترتيب موضوعات كتاب: «نصيحة المشاور وتعزية المجاور» وتنظيمها بالشكل المذكور يهدف إلى تشويه سمعة الشيعة والتشيع ولا سيما مذهبي الإمامية والإسماعيلية، وإن بدا هدف المؤلف بيان تاريخ المدينة على أساس ساكنيها من المجاورين والخدّام والدفاع عن هاتين الطبقتين. فقد عاد اليعمري من جديد وبدأ باستقصاء سيرة قاسم ابن مهنا بعد عشرات الصفحات من البحوث المتفرقة والقضايا المنتشّنة، ليقدم شرحاً مفصلاً عن إمارة هذا الرجل وأعماله.^٢

وهكذا يستمرّ اليعمري في تقريره في شرح حال أمراء المدينة حتى عام (٧٦٠هـ) لينتهي هذا الفصل في الصفحة رقم (٤١٧) من كتابه، ثمّ يذكر سيرة الحاكم عطية بن ججاز الذي يدعو له الكاتب ويمدحه بشدة.

وقد أفرد اليعمري الفصل الأخير من تاريخ أسرته لشرح حال والده وأخيه وأغلب حديثه يدور حول توارث العلم في أسرته والمؤلّفات وبعض المسائل الأسرية الأخرى. ثمّ

١. المصدر نفسه : ٣٩٣ .

٢. المصدر نفسه : ٣٩٤ .

تحدّث اليعمرىّ بالمشاكل التي واجهته سنة (٧٦٣هـ) وكذلك تعرّضه للقتل،^١ وفي ذلك يذكر قصيدة طويلة ادّعى أنّها شكوى يرفعها لرسول الله (صلى الله عليه وآله) وبيان فضائل المدينة المنورة.^٢ وله قصيدة أخرى كذلك في شأن المدينة يشير فيها إلى الكثير من الأماكن التاريخية والدينية.^٣ وتشير آخر العبارات الواردة في كتابه إلى أنّه انتهى من تأليفه الكتاب سنة (٧٦٧هـ).^٤

وكان عبد الله بن محمّد بن فرحون اليعمرىّ قد وُلد سنة (٦٩٣هـ) وتوفّي سنة (٧٦٩هـ) أي بعد سنتين على انتهائه من تأليف كتاب: «نصيحة المشاور وتعزية المجاور».

استنتاج...

يُعدّ اليعمرىّ لسان حال طائفة المجاورين في المدينة والمدافع عن مذهب أهل السنّة، ووفق المعلومات التي قدّمها فإنّ الشخصيات التي كانت تحكم المدينة وذات النفوذ فيها كانوا ينتمون إلى مذهب الإمامية، إلّا أنّ ذلك لا يعني موافقة جميع المقيمين لهذا الرأي وإن كان المذهب المذكور هو السائد في المدينة وهو المعنى بتولّي أمر الخطابة والقضاء. وفي تلك الفترة لم تُخف دولة المماليك - التي استنفرت كلّ قواها للقضاء على الشيعة في الشام كلّها - قلقها واهتمامها بالمدينة المنورة فقامت بإرسال الخطباء والقضاة إليها، ويقدم لنا اليعمرىّ في كتابه: «نصيحة المشاور وتعزية المجاور» تقريراً وافياً حول محاربة المماليك للتشيع وإقصاء الشيعة وتشيتيتهم، مع تأكيد اليعمرىّ نفسه على أنّ الأشراف في المدينة كانوا يذودون عن الشيعة ويحامون عنهم إلّا أنّ الضغط الذي مارسه المماليك عليهم أدّى إلى تقليص تلك الحماية عن

١. المصدر نفسه : ٤٣٣ .

٢. المصدر نفسه : ٤٣٣ - ٤٣٦ .

٣. المصدر نفسه : ٤٣٧ - ٤٤٢ .

٤. المصدر نفسه : ٤٤٣ .

معلومات حول نفوذ الشيعة ...

الشيعة. ولا شكّ في أنّ النشاطات والأعمال التي كان المماليك يقومون بها كان لها الأثر الأكبر في إيذاء الشيعة في المدينة وتعريضهم للتشكيل وهو ما بيّنه اليعمرى بالتفصيل في كتابه المذكور.



